مُعجِزَةُ العُمْرِ

أ. زينب صلاح
مترجمة، ومهتمة بشؤون المرأة المسلمة
zsalah003@gmail.com

كان طرفة بن العبد (ت: ٥٦٩م) من أكثر شعراء العرب براعة وإبداعًا، حتى أن لبيد بن ربيعة (ت: ٦٦١م) قدَّمه على نفسه حين سُئِل عن أشعَر الناس، فقد جاء في كتاب الشعر والشعراء أن لبيد بن ربيعة مَرَّ بمجلس لنهد بالكوفة، وهو يتوكّأ على عصا، فلمّا جاوزَ أمروا فتى منهم أن يلحقه فيسأله: من أشعر العرب؟ ففعل، فقال له لبيد: الملك الضّلّيل، يعني أمرأ القيس، فرجع فأخبرهم، قالوا: ألّا سألته: ثم من؟ فرجع فسأله، فقال: ابن العشرين، يعني طرفة، فلما رجع قالوا: ليتك كنت سألته: ثم من؟ فرجع فسأله، فقال: صاحب المحجن، يعني نفسه[1].

وبصورة شخصية، فإن معلقة طرفة بن العبد لها منزلة عظيمة في نفسي، فحرف الدال بالقافية تلائم شدَّتُه قسوة نشأة الشاعر، ويلائم جهرُه بَوحَه بالشكوى من ظلم الأقربين، ويلائم ترقيقُه لُطفَ توصيفاته، كما تُشعِر القافية المكسورة بحزنٍ تُجَلّيه فلسفة الموت في قصيدته. ومع إعجابي بالقافية، أحببت أيضًا ناقة طرفة، تلك التي صاحبته في أسفاره فصاحبها في شعره بالوصف والتشبيه حتى صارت خولةُ بجانبها عارضًا مهمَّشًا لا يسترعي الانتباه.

لكن تلك البراعة الشعرية في المعلقة وغيرها لم تمنع طرفة من تصرف ساذَج أودى بحياته، حين كتب له عمرو بن هند كتابًا إلى عامله على البحرين أوهمه فيه أنه أمر له بجائزة، وهو في الحقيقة يأمر فيه بقتله. وقد عرف طرفة هذا قبل فوات الأوان وكان بإمكانه الهرب، لكنه مع ذلك لم يرعوِ، وسار إلى الموت بقدَميه.

---

(١) ص١٨٦ - كتاب الشعر والشعراء - طرفة بن العبد - المكتبة الشاملة الحديثة.

وإن من دواعي العجَب أن تجد من يغوص بمعانيه في أغوار ذاتك مستخرجًا بألفاظه لك أوجهًا من حقائق الحكمة ثم هو يتلبَّس بما يعدُّه عامة الخَلق من خفَّة العقل. لكن مما يدفع التعجُّب أن أفعال بني آدم لا يتحكم فيها جانب واحد من أوصافهم بل تتنازعها كلُّها، وطرفة على جانب آخر من النظر لم يكن سوى شاب في العشرين!

إن من رعونة الشباب ما لا يصرفُه إلا مرور السنين، كما أن من سفَه الطفولة ما لا يحيلُه نُضجًا إلا انقضاؤه، ومن زهو الكهولة ما لا يردعُه إلا الشيب، ومن ضعف الكِبَر ما لا يجبُرُه إلا لقاءُ الله على الرضا.

وإن الناظر في تقلُّب أحوال الإنسان منذ مهده لَيرى أنه لا يزداد بمرور الزمن تطوُّرًا في الفكر وتقدُّمًا بالتجارب فحسب، وإنما تتغيَّر حاجاته مع الزمن تغيُّرًا لا يستطيع منه فكاكًا وإن كان به واعيا. ولهذا أجد في نفسي اهتمامًا بمعرفة أسنان الناس عند مخالطتهم جدًّا. فلِسنِّ المرء أثرٌ في انتقاء طريقة معاملته، وفي تفهُّم سلوكه، وفي تقدير اتزانه ولو على نحو مُجمَل.

فحين ترى ابن السابعة عشر يفرض الجدل الطويل حول مسألة يراها الناس عابرة بينما يرى هو بعين غيرَته وحميَّته سوادَها الحالك، تعرف أنها ستنتقل معه بعد زمن إلى مساحة الرماديات الناشئة والمتزايدة. وحين ترى صاحبة السبعين تتلقفها الوحدة فلا تكف عن الحديث كلما لاقت إنسانًا، تعرف أنها لا تتقصَّدُ الإزعاج وإنما تتطلب الأنس، وهكذا.

وحتى انبعاث الشهوات في النفوس يرتبط -فيما يرتبط- بمرور الزمن، فبينَا تغلب الشهوات الماديَّة زمن الطفولة وتستعر زمن الشباب، تتسلل الشهوات النفسيَّة فيما يلي ذلك من السنوات، فتجد المرء قد يصبر عن الطعام والشراب وعلى فقدان الزوج، لكنه لا يصبر ساعة عن طلب الرياسة أو الجاه مثلا، إلى غير ذلك مما تختلف به أحوال الناس.

ولعل ذلك التقدير الزمني كان من أسباب «استجهال» المنازل للنابغة الذبياني (ت: ٦٠٤م) حين دعاه الهوى زمن المشيب، فقال:

دعاكَ الهوى واستجهلَتكَ المنازلُ ** وكيف تصابي المرء والشيبُ شاملُ

وبمثله أيضًا كان يعِظُنا أبو إسحاق الألبيري (ت: ٤٦٠هـ) بقوله:

ويقبُحُ بالفتى فعلُ التصابي ** وأقبَحُ منه شيخٌ قد تفتَّى

تأملتُ هذا التقلب العجيب، وتذكرت قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. فوجدتُ في هذه الآية الكريمة من علم الله تعالى بخلقه وتقديره لأعمارهم ما ألهمني تعظيمًا لتدرج أطوار الخلق والنشأة، وقد كان الله سبحانه قادرًا على أن ينشئ الخلق على هيئة ثابتة، وما في تتابع التدرج والتنوع من إشعار بتجدد الآيات يجعل يقيننا في آية البعث يقينًا أشدَّ، فبهذا المعنى لا يكون إيماننا بالبعث مقيسًا على مجرد خلق الإنسان أو النبات فقط، بل على تتابع الآيات في آية الخلق نفسها، فإن في كل طور من تلك الأطوار وجهًا من الإعجاز يوحي بعظمة الخالق سبحانه وكمال قدرته.

ثم تأملتُ بعدئذ افتتانَ الناس بربيع الفتوَّة والشباب من بين تلك الأطوار، وتأملتُ غروري بالشباب وتغريره بي، فوجدتُ من أزاهير نفوسنا ما قد لا يتفتح به، ومن ثمار آثارنا ما قد لا ينضج فيه، بل قد يكون في الأطوار الأخرى من أوجه الخير ما ليس في الشباب، إما بالعادة التي تفرضها طبيعة التكوين، وإما بتقدير الله سبحانه لكل شخص على حدة.

وقد قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] عند قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: «ذلك حين تكاملت حُجة الله عليه، وسير عنه جهالة شبابه» ا.هـ. غير أنه من بين براءة الطفولة وصحة الشباب ونضج الكهولة ورشد الاستواء وحكمة الكِبَر، ما من أحد يعلم -بعد تكليفه- أيَّ تلك الأطوار سيكون طور إزهاره أو إثماره، ولا أيها سيكون أغزرها عطاء أو أبقاها أثرًا.

لقد نُبِّأ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم في سنِّ الأربعين، وأخذت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها العلمَ عنه ونالت صحبته الشريفة قبل العشرين، واختلفت أسنان الصحابة رضوان الله عليهم في أشرف مواقفهم، وتعددت أحوال الناس جميعا في ذلك ولا تزال فيما تحفظه لنا كتُب التراجم مما يبعث دهشة المعتبِر.

فما رأيتُ العُمرَ إذ ذاك زمنًا تتبدَّلُ فصولُه لجميع الناس على نفس الوجه بين ربيع وخريف. بل رأيتُه آيةً عظيمة من آيات الله فينا، تتكشَّف لنا منها -بصعبها وذَلولِها- أوجهٌ من الإعجاز تباعًا ونحن نمضي في طريق الحياة ساعين كيفما نقدر، حتى نتعجَب فيمَ كُنَّا وإلامَ صرنا، ونسبح بحمد الله القائل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].